



This is a digital copy of a book that was preserved for generations on library shelves before it was carefully scanned by Google as part of a project to make the world's books discoverable online.

It has survived long enough for the copyright to expire and the book to enter the public domain. A public domain book is one that was never subject to copyright or whose legal copyright term has expired. Whether a book is in the public domain may vary country to country. Public domain books are our gateways to the past, representing a wealth of history, culture and knowledge that's often difficult to discover.

Marks, notations and other marginalia present in the original volume will appear in this file - a reminder of this book's long journey from the publisher to a library and finally to you.

Usage guidelines

Google is proud to partner with libraries to digitize public domain materials and make them widely accessible. Public domain books belong to the public and we are merely their custodians. Nevertheless, this work is expensive, so in order to keep providing this resource, we have taken steps to prevent abuse by commercial parties, including placing technical restrictions on automated querying.

We also ask that you:

- + *Make non-commercial use of the files* We designed Google Book Search for use by individuals, and we request that you use these files for personal, non-commercial purposes.
- + *Refrain from automated querying* Do not send automated queries of any sort to Google's system: If you are conducting research on machine translation, optical character recognition or other areas where access to a large amount of text is helpful, please contact us. We encourage the use of public domain materials for these purposes and may be able to help.
- + *Maintain attribution* The Google "watermark" you see on each file is essential for informing people about this project and helping them find additional materials through Google Book Search. Please do not remove it.
- + *Keep it legal* Whatever your use, remember that you are responsible for ensuring that what you are doing is legal. Do not assume that just because we believe a book is in the public domain for users in the United States, that the work is also in the public domain for users in other countries. Whether a book is still in copyright varies from country to country, and we can't offer guidance on whether any specific use of any specific book is allowed. Please do not assume that a book's appearance in Google Book Search means it can be used in any manner anywhere in the world. Copyright infringement liability can be quite severe.

About Google Book Search

Google's mission is to organize the world's information and to make it universally accessible and useful. Google Book Search helps readers discover the world's books while helping authors and publishers reach new audiences. You can search through the full text of this book on the web at <http://books.google.com/>

AL-HUWAYYIK

SAFHAH MIN TARIKH MISR



١٠
١٠

صفحة
من تاريخ مصر

بقلم

الياس طنوس الحويك



طبع على نفقة الهدى لمنشئ نعيم مكرزل * نيويورك سنة ١٩١٤

Al-Hoda, Publishing House, 81 West St., New York, U. S. A.

1914

al-Huwayyik, Ilyās

Safhah

صفحة

من تاريخ مصر

بقلم

الياس طنوس الحويك



طبع على نفقة الهدى لمنشئه نعيم مكرز * نيويورك سنة ١٩١٤
Al-Hoda, Publishing House, 81 West St., New York, U. S. A.
.....1914.....



بيان صغير

جرت ادارة الهدى منذ انشائها على طريقة خاصة بها ان تطبع على نفقتها كل كتاب مفيد للادباء والادبيات الذين يضحون في سبيل الوطنية والتهديب والتربية العالية ما لا يستطيع او لا يريد غيرهم تضحيته وغرض الادارة من ذلك تنشيط الاداب وخدمة الشعب بخدمة الممتازين من ادبائه الذين وجودون بما لديهم اذ يكون الاغنياء والعظماء ضائنين الا بالادعاء وشاخين الا بالخيلاء وفي ذلك دليل على ان الاصلاح لا يجيء على ايدي اكثر المثريين والمتفوقين بل على همم الافراد الذين « ينظرون ويشعرون ويضحون » وربما كان افيد وافضل واجراً الكتابات ما ينشره المهاجرون الذين مزقوا البراقع عن عيونهم ليخدموا بها المتخلفين الذين لا يزال اكثرهم عاصبا عينيه بالخلق من الاغترار والمخرقة في الاعتبار بين مجد رث ووظيفة نخرها العث . ومن اخلص للمبادئ وكان للاداب والاصلاح كفوء اخلصنا له

نعوم
مكرزل

(RECAP)

2271
40153
379

11-22-61 o.k.



بيان صغير

جرت إدارة الهدى منذ انشائها على طريقة خاصة بها ان تطبع على نفقتها كل كتاب مفيد للادباء والادبيات الذين يضحون في سبيل الوطنية والتهديب والترتية العالية ما لا يستطيع او لا يريد غيرهم تضحيته وغرض الادارة من ذلك تنشيط الاداب وخدمة الشعب بخدمة الممتازين من ادبائه الذين يجدون بها لديهم اذ يكون الاغنياء والعظماء ضائين الا بالادعاء وشاخين الا بالخيلاء وفي ذلك دليل على ان الاصلاح لا يجيء على ايدي اكثر المثربين والمتفوقين بل على همم الافراد الذين « ينظرون ويشعرون ويضحون » وربما كان افيد وافضل واجراً الكتابات ما ينشره المهاجرون الذين مزقوا البراقع عن عيونهم ليقدموا بها المتخلفين الذين لا يزال اكثرهم عاصبا عينيه بالخلق من الاغترار والمخرقة في الاعتبار بين مجد رث ووظيفة نخرها العث. ومن اخلص للمبادئ وكان للاداب والاصلاح كفؤا اخلصه

نعوم

مكرزل

11-22-61 0K.K.

(RECAP)

2271
4053
379
Digitized by Google



محمد علي باشا

= ١ =

مصر والمسألة الشرقية

— محمد علي —

منذ قرن من الزمان تحولت انظار الفاتحين ودهاة السياسة الى القطر المصري فجعلوا يعنون بامره ويبحثون عما يوليه عمرانا ورقيا ويعتبر هذا القطر مركزا طبيعيا للعالم القديم وبابا لطرق البحر الكبرى ومفتاحا لجميع الطوارىء في انحاء بلاد الهندولا يخفى ان اهمية موقع ذلك القطر تفوق اهمية موقع القسطنطينية ولم ينت هذا الامر دهاقته السياسة واساطين الحكومات الاوروبية فقد كانت مصر في النصف الاول من القرن المنقضي عقدة المسألة الشرقية وان نابوليون بونا برت الذي استنزف المجهود لتضييق دائرة انكلترا وطوارئها وتصييرها اثرا بعد عين فتح ارض الفراغة مبتغيا تدمير التجارة الانكليزية في الهند وما عثم ان ادخل اليها مدينة جديدة في مدة قصيرة . فمصر المبحوث عن ماضيها ومستقبلها ونظامها الطبيعي والاجتماعي وحاصلاتها وحاجاتها ومواردها ابصرت امامها في اثناء اقامة الفرنسيين فيها عصر اقبال لم تكن قد شاهدته منذ قرون عديدة . ومن الغريب ان ذلك العمل العظيم الذي باشره الفرنسيون ووضعوه موضع الاجراء كان عقيما لهم فقد اتاحت الاقدار بان الصحراء التي غشتها عظام الجنود الفرنسيين وزرعت

فيه بذور التمدن تقع غنيمة باردة لرجل مكدوني من سوقة الناس قيض له ان
يجني ما زرعه غيره

ولد محمد علي في قواله من اعمال الروملي وطن الاسكندر ذي
القرنين وقد كان يذكر ذلك في عنفوان عظمته متباهيا به بقوله غير مرة
« وانا ايضا مكدوني » وكان يسر ايضا بان يقول انه ابصر النور في نفس
السنة التي ابصره فيها نابوليون بوناپرت اي سنة ١٧٦٩ ولكن لا يوجد شيء
راهن يثبت صحة هذا الزعم الذي كان يفتخر به ذلك الجندي الذي
ساعده الحظ على بلوغ ذلك المقام الرفيع . فلا شيء اصعب من معرفة
عمر التركي الا معرفة عمر الالباني فالمواليد في تلك الاقاليم لا يشتهد ادنى
مستند حقيقي وكثيرا ما يعلقونها على ذكرى حادث مهم راسخ في اذهان
القوم . فيقول الشرقي « ولدت في السنة التي توفي فيها فلان » او
« ولدت في السنة التي جرت فيها الفتنة في محل كذا » وهلم جرا

وتوفي والد محمد علي حين كان هذا الغلام ناعم الظفر ولكن
ساق اليه القدر تاجرا مرسيلا يقال له الموسيو ليون فلما وقعت عين هذا
التاجر على محمد علي وشاهد فيه ماشاهده من النجابة والنباهة مال اليه
بجملته واجبه محبة الوالد لولده . واوحى اليه حب فرنسا والميل الى
التجارة فانشأ محمد علي حانوتا وضع فيه تبغا وقضى ايام شببته في مزاوله
بيع التبغ

ولما جند الباب العالي فيلقا من الالبانيين في قواله ليسيره الى مصر
لمقاتلة الفرنسيين كان محمد علي من جملة اولئك الالبانيين وقد امتازعن
رفاقه في معركة ابي قير سنة ١٧٩٩ فكوفئ على بسالته برتبة يوزباشي

لا ينبغي ان ينسب مثل ذلك التقدم الى الحظ في بلاد مثل البلاد
العثمانية لثلا ييهم على الناس فهمه والبلاد التي من جملة مبادئ اهلها
هذا المبدأ الفلسفي « حين يمنح الله منصبا يمنح في الوقت عينه الاهلية
اللازمة للنهوض باعبائه » يرقد الواحد من سكانها صعلوكا مسكينا وينهض
قائدا هماما

وبعد خروج الفرنسيين والانكليز من مصر تنازعت القطر
المصري قوتان قوة المماليك الذين لم يكونوا يفكرون عن رفع اعلام العصيان
وقوة الباب العالي المؤلفة من اربعة الاف الباني بينهم محمد علي باشا ولم
يكن ذلك الداهية الالباني يني عن لقاء الخلاف بين الاتراك والمماليك
خادما كلا من الفريقين بالتناوب رغبة في اضعاف بعضهم بواسطة البعض الاخر
غير مغفل عن استمالة خدمة الدين والشعب اياه وكان حاكم مصر في
ذلك العهد يدعى محمد خسرو باشا فاستأنف مواجهة المماليك الخاضعين
لزعيمهم الكبيرين عثمان البرديسي ومحمد الالفي وانكسرت جنوده في
دمهور فاتهم محمد علي بالخيانة زاعمائه هجر ساحة القتال خاذلا رفاقه
واستدعاه اليه ليقصص منه ويهلكه جاعلاياه عبرة ظاهرة فعرف محمد علي ما
كان ينويه له الحاكم وفضل الاتفاق مع البرديسي ففتح له ابواب القاهرة
وزحف معه على محمد خسرو باشا فحاصراه في دمياط وساقوه اسيرا الى
العاصمة وكان ذلك سنة ١٨٠٣

وبتدئ من هذا اليوم نفوذ محمد علي السياسي وارسل الباب
العالي حاكما اخر لمصر اسمه علي الجزائري فانتقض عليه الجند وجرحه
كأس الحمام

ولما خلا للمماليك الجو واستتب لهم الامر واستأثروا بالسلطة عبثت بهم يد الشقاق وكان محمد علي يحرش كل فريق على الآخر فاضطر الالفى الى الانسحاب الى مصر العليا واكره انبرديسي الى مغادرة العاصمة وقد جرى ذلك سنة ١٨٠٤ وكان محمد علي بأستاده الى الشعب والايمة قد اصبح صاحب الامر والنهي في مصر السفلى وكان بوسعه منذ ذلك الحين لو شاء ذلك ان يقبض بيده على ازمة الاحكام في القطر المصري برمته ولكنه حاذر ان يعرض منزلته التي لم تكن بعد قد رسخت اركانها وتوطدت دعائمها لعداوة المماليك الهائجين عليه والمتوخين هلاكه وسخط المولى الاعظم الذي ساق اليه الاهانة باحتقاره شخصية نوابه والغض من كرامتهم

وحمله الدهاء على ان يجعل سلطته مستدرية بكنف السلطة الشرعية فسمى لتنصيب خورشيد باشا حاكم الاسكندرية حاكما لجميع القطر المصري ولتنصيبه نائبا له وكان ذلك التنصيب الذي جرى برضى الباب العالي مهيدا في وجه محمد علي السبيل للوصول الى الغاية التي يطمح اليها بصره وتطمع بها نفسه اي الارتقاء من الدرجة التي هو فيها اي درجة السوق الى مقام يضاهاى مقام الملوك دون ان يكون له من سند غير شدة صريمته وقوة ارادته وتوقد نهيته



= ٢ =

خديوية محمد علي — طمع الانكليز بمصر — الفتك
بالمليك — حرب العربية

وكان لخورشيد باشا سلطة وهمة فنار عليه الالبانيون بحجة تقاضي مرتباتهم المتأخرة واما محمد علي فان منزلته في البلاد كانت امنع من عقاب انجو فكان يشن الاغارة على الممالك مبتغيا بذلك استمالة الشعب ولاسيما خدمة الدين اليه فانهم لم يكونوا يفترون عن التظلم منهم وكان له في القسطنطينية انصار يتفانون في تبليص صحيفته لدى الباب العالي واستمطار النعم عليه من سماء العرش الاسنى . وتوهم خورشيد باشا انه يستطيع التماس من الالبانيين بترخيصه لهم بالعودة الى مواطنهم في اوروبا فتظاهر محمد علي بالامثال لرغبة الحاكم ولكن لم يكذباً اقتراب رحيله يستفيض حتى قنقت الخواطر واضطربت الافكار و قام رجال الدين واعيان القاهرة يقيمون النكير على ارتحال محمد علي ورجاله ومما جعلهم يتظاهرون بحدة في ذلك الامر اعتبارهم اعتراضهم على مثل تلك الامور ظلا للحقوق الوطنية . وحدث في اثناء ذلك الحين ان جنود خورشيد باشا الاتراك المتأخرة رواتبهم اغاروا على المدينة ونهبوها فاستاء الشعب والايمة من عملهم هذا استياء شديدا وعقدوا الاجتماعات فعقدت الخناصر على طرد خورشيد باشا من بين ظهرانيهم والقاء مقاليد الخديوية بين يدي محمد علي . ففي بدء الامر

اظهر رغبته عما كانوا يقدمونه اليه ولم يدعن لارادتهم الا بمشقة كبرى وكان في الوقت عينه يسعى سرا مع انصاره في القسطنطينية للتزلف الى الباب العالي واستمالته اليه فنجحوا في مهمتهم ونالوا منه تنصيب محمد علي حاكما على مصر اجابة لرغبة الشعب المصري وانعم عليه ما عدا الخديوية بلقب باشا فاصبح الموت والحياة بين شفتيه وكان ذلك في ٩ تموز سنة ١٨٠٥

واصبح محمد علي باشا حاكما اكبر لبلاد مصر التي لم يكن اصحاب الغايات يفتأون عن تنازعها لاستدراخيراتنا واهتضام حقوق سكانها وكان محمد علي من اشد الطامعين بالخديوية دهاء وحكمة وتغريرا بالنفس ولم يكد يستتب له الامر بعد التيا والتي حتى تألبت عليه جميع المطامع فتصالح محمد الالفي وخورشيد باشا وعرض لدى الباب العالي خضوعه ووعد بمساعدته لخلع محمد علي والتتكيل به وكان رجال سفارة انكلترا في القسطنطينية يعضدون الالفي مكافأة له على ميله اليهم وخدمته مصالح بلادهم اذ كان قد وعد بان يفتح ابواب جميع الثغور المصرية في وجه الانكليز فنشب الباب العالي في الاحبولة المنصوبة له وبهرت عينيه الهدايا الفاخرة المقدمة اليه وبادر الى انفاذ قبطان باشا او رئيس الاساطيل الاكبر الى مصر لاعادة انماليك الى ماضي سيادتهم ولترميم ما تداعى من صرح نفوذهم وكان من مهمته ايضا تطهير البلاد المصرية من عيث الالبانيين بعرضه على محمد علي باشا الانتقال الى ولاية سالونيك فابدى محمد علي باشا هذه المرة ايضا انه راغب في الامتثال لامر الباب العالي ولكن الائمة والعساكر والممالك الذين من حزب البرديسي اعترضوا على مزاييلته القطر المصري وطلبوا ابقاءه فيه وتدخل المسيو دروفتي قنصل فرنسا في تلك القضية فاوصى الاميرال التركي والسفير

الفرنساوي خيرا بمحمد علي باشا واوزانى خمسة وعشرين فرنساويا كانوا متقيدين بخدمة الالفي ان يهجروا مراكزهم وفي اخر الامر صار الباب العالي يعتقد ان الممالك منقسمون على بعضهم ولا يرجى منفعة من وراء الاعتماد عليهم فحينئذ صدر فرمان جديد يثبت محمد علي باشا في الخديوية في مقابل هدية قدمها وكلفته سبعة ملايين ونصف مليون من الفرنكات

بعد مدة قصيرة حضرت الوفاة البرديسي والالفي زعمي الممالك فخرمتها المنية سنة ١٨٠٧ وكان الانكليز الذين اصابوا في البوسفور فشلا محقرا يريدون رتق ما انفتق من برودة مجدهم بنيلهم بعض المرافق في مصر فعالجوا ان يستولوا بالقوة على ما كان الالفي قد وعدهم بان يمنحهم اياه وانزل الاسطول الانكليزي سبعة الى ثمانية الاف مقاتل الى البر بقيادة فرازر واحتل القسم الاكبر منهم ثغر الاسكندرية لما كان قد جرى بينهم وبين حاكم تلك المدينة من الاتفاق في ١٧ اذار سنة ١٨٠٧ وحمل الطيش قسما من جيش الانكليز على التوغل في اسواق مدينة رشيد الضيقة فاهلكتهم عن بكرة ايهم عصابة من الالبانيين في ٢١ اذار . وارسل محمد علي باشا مائة جمجمة من جاجم اولئك الانكليز الى القاهرة فزينوا بها محلة الرملية . ولما السقى فرزار ذاته بغير عضد ولا معين اضطر الى الانسحاب والتسليم في الاسكندرية على ان يركب البحر منهادون ان يترك اسيرا واحدا من رجاله في حوزة محمد علي باشا وقد ركب متن مراكبه في ١٤ ايلول

دخلت بلاد مصر في ولاية محمد علي باشا ولكن كانت تعوزه الوسائل للتمتع بسلطته بسلام تقر به عيناه ففي الداخل شعب ايهظته اثقال

الضرائب وجيش شعاره النهب والسلب ومبدأه العصيان والتمرد على كل ذي سلطة وقتال دائم مع المماليك ومريديهم وفي الخارج سياسة الباب العالي المبنية على الحسد والضعف فاذا شاهده متغلبا اجهزت عليه واذا رآته منتصرا دبرت له المهالك سرا ويمكن القول بوجيز الكلام انه كان يرى حواليه خصومات قوية وبغضا شديدا دون ان تبلغ منه وتوهي جلده وتثبطه عن المسير في العبادة التي انتهت به الى غاية المجد والفخر وجعلته ينشئ مملكة مستقلة وكان اول امر بدأ به لتذليل المنصاعب التي تعترضه في طريقه كسر شوكة المماليك الا انه لم يجسر على موابتهم جهارا بل عمل سرا على اهلاكهم ليتسنى له ضربهم بتلك الضربة التي طمست رسومهم وعفت اثارهم فاعوز الى بعض اشياعه ان يكتبوا الى المماليك بان فريقا من الجنود الاتراك ينتظرونهم في القاهرة ليسانعدهم على شق عصا الطاعة ورفع علم العصيان فاسرع بعضهم الى القاهرة ونشوا في الحبال المنصوبة لهم ثم انه اضطر الى اهلاك جنوده انفسهم وتولى امر المحافظة بنفسه على عاصمته فكان يجول ليلا ونهارا وهو متنكر في الشوارع والملاهي والمحلات العمومية ويسلم للخبراء الذين كانوا يتبعونه عن كثب كل من يجنح عن الطريقة المثلى وكثيرا ما كان يعاقب بيده من يجدهم في حالة الخطأ

وقصارى الكلام ان الشعب قدرله شدة صريمته حق قدرها فكان له من وراء ذلك انصار عديدون وما عتمت سلطته ان اصبحت راسخة الاركان فنظر اليها الباب العالي بمقلة التحفظ وصمم على اقامة العقبات في طريقه والقاء الجنادل في سبيله

وكان في نجد طريقة تدعى الوهايين انشأها منذ خمسين سنة الشيخ عبد

الوهاب وسماها باسمه ولم يكن اصحاب تلك الطريقة يعتقدون الا بنص القرآن دون سواه وينبذون الحديث وجميع الشروط والتقاليد وانتقال السلطة في سلالة النبي محمد وتطرقوا بذلك الى انكار سلطة السلطان واستولى الوهايون على الحجاز واليمن وكادوا يستولون على الشام وبغداد فاغتنم الباب العالي الفرصة من خروج تلك الاقوام عليه وعزم على اضعاف محمد علي باعاذه اليه مقاتلة الوهايين واخضاعهم . فامر السلطان محمود الثاني خديوي مصر بالشخص الى العربية لمحاربة الثائرين واستخلاص مكة والمدينة من ايديهم فلم يتردد محمد علي باشا في تلبية طلب السلطان مولاه ولم ترعه تلك الحرب التي تقتضي كثيرا من الرجال والاموال بل رأى في تلك الحرب اسبابا جديدة تزيد سطوته وثروته

ولم يكن يشبطه عن مباشرة الحملة والزحف على الوهايين سوى امر واحد فان الممالك كانوا قد ضموا متفرق شملهم وجعلوا يعيشون فسادا في ارض مصر ويترصدون من محمد علي باشا غفلة ليدخلوا العاصمة ويستعيدوا ماضي مجدهم فلم يستصوب الخديوي الانطلاق بجيشه وترك الممالك وراءه مخافة ان يجروا امورا تسوء عقابها وحينئذ فكر في امر التملص منهم بالجري على المنهاج الذي جرى عليه السلطان محمود الثاني حين نكب الانكشارية نكبة ابادتهم عن بكره ايهم

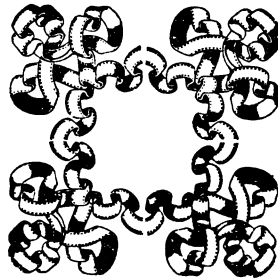
وفي اول اذار سنة ١٨١١ ادعت اسرة الالفى الى قلعة القاهرة لتشهد حفلة تقليد طرسن ابن الخديوي قيادة الحملة على العربية فلم يسعها نبذ تلك الدعوة التي عدتها التفاتا وانعطافا ولا سيما لان تلك الاسرة كانت منذ مدة قصيرة قد زالت بعض العوارف الغرارة

وكان اولئك الفرسان الذين وصفهم بونايرت بكونهم افضل الفرسان في العالم يسرون على الطريق المؤدي الى القلعة بين جدران تكثر فيها المرامي فترجلوا امام السراي وادخلهم الحجاب على انخديوي في مجلسه وبينما الممالك يودعون لينصرفوا دنا احد ضباط القصر من ضابط فرقة فرنساوية كانت باقية مع العساكر المصرية وجذب طرف ردايه هامسا في اذنه بان يظل مكانه فامتثل لتلك الاشارة وحذا رجاله حذوه وبعد بضعة دقائق سمع صوت مدفع تلتها عيارات نارية عديدة . فان الممالك لم يكادوا يتوغلون في الممر الضيق حتى ابصروا الابواب تغلق خلفهم وشاهدوا من وراء المرامي بنادق الالبانيين الطويلة وكانت مذبحه هائلة لم ينج منها سوى مملوك واحد ونجا الفرنسيون من الردي بفضل محمد علي باشا وميله اليهم كما امر بيانه

وفي اليوم عينه والساعة نفسها دبحوا الممالك الآخرين في شوارع القاهرة وفي المدن الاخرى وبرية الصعيد والذلتا . واضطر الذين نجوا منهم الى الالتجاء الى الصحراء وهكذا انقرض اولئك الفرسان الذين كانوا يستنزفون منذ القرن الثالث عشر موارد القطر المصري ويقذفون الذعر على افئدة سكانه واما محمد علي باشا فانه لطنخ بردة سمعته بعمل فظيع تبرأ منه الانسانية ويظل مدى الدهر يذكر فلا يشكر

ولما زال ما كان محمد علي باشا يخشاه سمرت البعوث الى العربية . وكانت الحرب مع الوهابيين طويلة الاجل محفوفة بالمصاعب والمتالف . يتعاقب فيه النصر والفشل على كل من الفريقين . وقد دفع اليأس والبأس الوهابيين الى مقاتلة المصريين قتالا احبوا معه الموت فاضطر ابراهيم باشا ثاني انجال انخديوي الى موافاة اخيه طوسن ونجدته وزحف محمد علي باشا

ذاته على الحجاز واستغرقت تلك الحملة ست سنوات أجرى فيها الجيش المصري اعمالاً حربية غريبة تدل على الشجاعة والاقدام والصبر على الشدائد وقد هلك منه خلق كثير وفي اخر الامر تمكن ابراهيم باشا من الاستيلاء على درجة عاصمة سلطنة الوهايين الجديدة وتدميرها وتدويخ انصار تلك الطريقة لوانتخلاص المدينتين المقدستين من ايديهم وتأمين طريق الحج وكافاً السلطان محمود الثاني ابراهيم باشا على ما آتته العظيمة بمنحة اياه لقب والي مكة وكان ذلك سنة ١٨١٨



== ٣ ==

فتح السودان

وكانت بلاد العربية قد التهمت نخبة جنود المصريين في اثناء الحرب
الماضية ولم تعد البلاد التي فقدت خيرة رجالها ونضبت منها موارد الرزق
قادرة على ترميم ما تداعى من صرح مجدها ورتق ما تفتق من مطارف
سوءدها والاستعاضة عما قضى عليها النذر بفقدته فحول الخديوي نظاره الى
الاقاليم الجنوبية سعيا وراء موارد جديدة

وكانت الغاية التي يرمي اليها محمد علي باشا في بعثة السودان
الاجهاز على من بقي من المماليك الانلاجئين الى بلاد النوبة والاستيلاء على
اهم سوق من اسواق العبيد في العالم الاسلامي واحتكار مناجم الذهب في
جبال الحبشة وكان محمد علي باشا ينوي الرخف على مملكة سنار على
ضفاف النيل الازرق المتوفر فيها وجود المناجم الذهبية والرجال الاشداء

وبوشرت تلك الحملة سنة ١٨١٩ وسنة ١٨٢٤ قبل حرب اليونان بمدة
قصيرة ولكن الحوادث المعاصرة لها حولت الانتظار عنها فلم يكثر لها
الملاء السياسي اكراثايد كرو والسودان الشرقي والسودان المصري هو عبارة عن تلك
الاراضي الفسيحة الممتدة من حدود مصر الجنوبية الى بحيرات البرت وفكتوريا
نيانزا ومن البحر الاحمر الى الصحراء ودارفور . وهو القسم الذي في وادي
النيل بين نيايعة والشلال الاول وكانت انخطة التي توخاها المصريون المسير في

وادي النيل وهو الطريق الوحيد الذي فيه ماء واخذ الضفة اليسرى التي تقيها من هجمات الاعداء صحراء ليبيا المنبسطة غربي سلسلة الجبال الممتدة عند الشاطئ

وفي ١٨ تموز سنة ١٨٢٠ تحرك جيش الحملة وفوامه اربعة الاف مقاتل ومشي بقيادة اسماعيل باشا ثالث انجال انخديوي ولم يكن لاسماعيل سوى اثنتين وعشرين سنة من العمر فركب المشاة متن السفن الشراعية وصعدوا بها النيل وسار الفرسان على الشاطئ يقطعون مراحل قصيرة حتى بلغوا الشلال الثاني الذي يدعى شلال وادي حلفا عند حدود مصر الجنوبية وكان وصولهم اليه بعد خروجهم من مصر بشهرين ونصف

وتوغل جيش الحملة في النوبة وهي بلاد مجهولة قاحلة التربة قليلة المياه يهلك الناس فيها من العطش وهي التي التهمت في خالي الحين جيش كمبيز برمته . وهذا الاقليم يمتد مجاذيا ضفة النهر اليسرى فسارت البعثة فيه وقد لقيت في اثناء مسيرها مشقات كثيرة وعند مرور الاسطول بالشلالين الثالث والرابع فقد شطرا من سفائنه وبعد ثلاثة ايام ع وصلت العساكر المصرية الى دنكله مجتازة بلاد النوبة السفلى دون ان تثبطها عن التقدم تلك المصاعب التي تصدت لها في طريقها وهناك عثرت على الممالك الذين فروا من القاهرة ونجوا من المذبحة الهائلة التي جرت فيها وانتهت الى كورتى وهي الطرف الجنوبي للمنعطف الكبير الذي على شكل الحرف S الافرنجى الممتد نحو اربعمائة كيلو متر لنهر النيل . ولقي اسمعيل باشا في ذلك المكان مقاومة شديدة من الشيخية وهي قبيلة من قبائل العرب استوطنت منذ ستمائة سنة جنوبى دنكله في ارض مبلغ طولها نحو من ثلاثين فرسخا . وبعد وقعتين متواليتين

ظفر بها المصريون بفضل سلاحهم الجديد دخل اسمعيل باشا كورتى وهي التي يسميها هيرودوطس نباطا التي غزاها الرومانيون . وحينئذ صحت عزيمة قائد الجيش المصري على البقاء في كورتى لانتظار النجدة ووصول الاسطول وتحققه ما كان من ميل القبائل المجاورة فحضر خيامه في ظاهر البلدة على مقربة من الشلال الرابع وقضى فيها اربعة اشهر

وفي ٢٠ شباط سنة ١٨٢١ استأنف الجيش المصري زحفه موغلا في بلاد اقل قحولة من بلاد النوبة . وهي المنطقة الثانية من المناطق الثلاث المحيطة بأفريقيا وهذه المنطقة تسمى منطقة الاعشاب العالية وموقعها بين المنطقة الاولى التي تكثر فيها الرمال المحرقة والمنطقة الثالثة المتوفرة فيها نباتات الخط الاستوائي الناضرة

وفي ٥ اذار وصل اسمعيل باشا الى بربر بعد اجتيازه مجاهل بيوضه على الطريق التي تسير عليها القوافل من النيل المتوسط الى البحر الاحمر . وجاء نمير سلطان شندي وادى له الخضوع فاستقبله القائد المصري ببرودة واستعلاء فكان ذلك الاستقبال مدعاة لاضرام نيران حقد في قلب السلطان الافريقي بدت نتائجه الهائلة فيما بعد

وفي ٢٤ ايار انتهى اسمعيل باشا الى ام درمان قرب ملتقى النيلين وكان يقصد ان يعبر النيل الابيض من ذلك الموضع وقد اخبره ذلك الامر الشاق اربعة ايام فنزل بين النيلين على لسان من الارض مسطح يدعى رأس الخرطوم ولم تكن العين تقع على ادنى قرية او ادنى منزل في الموضع الذي انشئت فيه فيما بعد عاصمة السودان المصري . وكان اسماعيل باشا قد وصل بجيشه الى مملكة سنار المعتبرة ما بين النهرين الافريقية فان النيلين الابيض والازرق

يكتفانها بتعاريجهما ومنعطفاتهما وسقطت تلك المملكة المنيعه في ايدي المصريين غنيمه بارده دون ان تكلفهم ادنى معركة ودون ان تسفك في سبيلها قطرة واحدة من الدم وفي ١٢ حزيران دخل اسمعيل باشا عاصمة مملكة سنار دخول الفاتح

وقال احد كتبة الفرنسيين في عرض الكلام عن تلك الحوادث ما

يأتني

« اذا وجد في التاريخ اكتشافات مسلحة سلمية او حدث بعض الاعمال الخطيرة التي تستطاع مقابلتها من جهة الجراءة والنجاح باعمال كورتز ويزار فما ذلك الا الحرب التي جرت سنتي ١٨٢٠ و ١٨٢١ وافتتح في اثائها اقليم تبلغ مساحته اربعمائة فرسخ دون ان يلقي الفاتحون في اثناء مسيرهم من تصدى لهم تصديا جديا . ولم يقتض اكثر من سنة توسيع دائرة السلطة المصرية في بلاد تقع في اربع عشرة درجة وتمتد من الشلال الاول حتى حدود غالاس »

وبينا اسمعيل باشا ورجاله يستولون على مملكة سنار كان محمد بك صهر الخديوي المعروف باسم الدقتر داريفصل عن مصر في مفتتح سنة ١٨٢١ بجيش قوامه اربعة او خمسة الاف مقاتل مجتازا به بلاد النوبة . وكان يسير جنوبي دنكله الى جهة مخالفة للجهة السائر اليها اسمعيل باشا فتوغل في الصحراء الجنوبية الغربية ميمما كردوفان وهي بلاد مسطحة كثيرة الجفاف على شكل مربع الاضلاع تمتد على ضفة النيل الغربية . وكانت نتيجة هذه الحملة انتصار المصريين في باراواستلاكهم تلك البلاد الموازية لمساحتها نحو من ٢٥٠ الف كيلومتر مربع

وقد قيل في الامثال « دوام الحال من المحال » فان الحظ قلب
 للمصريين فجأة ظهر المجن فحين كان اسماعيل باشا يأسر في مملكة ستار
 العبيد وهي من جملة الغابات التي كان يتوخاها من وراء ذلك الفتح حل
 بالمصريين وباء شديد الوطأة وخيم المغبة اهلها منهم في شهرين من الزمان
 ١٥٠٠ نفس . وخف ابراهيم باشا الى سنار لنجدة اخيه فكان وصوله اليها
 في ٢٢ تشرين الاول سنة ١٨٢١ ومعه فيلق من الجنود البواسل فاتفق
 مع اخيه على توسيع نطاق النخاسة ولكنه ما عثم ان اصيب بالوباء . ولما
 تماثل انقلاب راجعا الى مصر بعد ان ترك قيادة رجاله يد طوسن بك وكانت
 الاقدار في ريق الامر مهادنة لاسماعيل باشا فصعد في النيل الازرق حتى بلغ
وادي طومات التي فيها المناجم الشهيرة قبله اما آل محمد علي باشا وغاية امانيه
 ومطمح انظاره . اجل ان التبر كان موجودا في تلك المناجم ولكنه لم يكن
 وفيرا ولم يجن اسمعيل باشا من الاعمال التي باشرها في تلك المناجم
 ثارا كثيرة الا انه استعاض عن النضار بالريق وما مكث اولئك العبيد ان
 هبت رياح الجراءة في صدورهم فجعلوا يتحفزون للقيام على المصريين
 والدفاع عن حياضهم ولم يعد اسمعيل باشا يرى له بدا من العودة الى سنار
 فعاد اليها واضطره التعب واليأس الى الطلب من ابيه ان يأذن له بالرجوع
 الى مصر فاجاب والده سوء له

وينما اسمعيل باشا قافل الى مصرمر في طريقه ببلاد السلطان نيمير
 الانف الذكر فتقاضاه دفع جزية مقدارها مائة وعشرة الاف فرنك وضره
 على وجهه بقصبة التبغ متوعدا اياه بان يرفعه على الخازوق ان هو تأخر عن
 تأدية ذلك المبلغ فشر سلطان شندي بان الكيل قد طفح وحدث في الليلة

التالية ان الامير المصري اقام وليمة شائعة فلم تمكن سورة الخمرة ذلك
الامير ورجاله من روية رجال شندي ينضدون خفية حول معرس المصريين
كوما من العلف . وبعد هنية من الزمان اضرمت النار في تلك الكوم
فاندلع لسانها الى جميع الجهات في وقت واحد واندفع اسميل باشا
وجلساءوه مبتغين الفرار من النار المحيطة بهم من كل جانب وما كادوا
يجتازون نطاق اللهب المحرق حتى ابصروا ناطقا ثانيا من الحراب والوجوه القبيحة
فهجم عليهم رجال شندي وجرعوه كوءوس الحمام مترعة الى اصابها
وفي الوقت عينه مالوا على سائر المصريين وعفوا آثارهم

ولم يكن هلاك ذلك الامير المصري الشاب ليفقد مصر البلاد التي
غزاها بالعساكر المصرية فوكل محمد علي باشا امر الانتقام لنجله المأسوف
عليه الى صهره الملقب بالدفتردار فاتح بلاد كردوفان . وكان من امر الانتقام
الذي انزله صهر الخديوي باهل شندي على شكل فطيع لم يسبق له نظير ان
القوم في بلاد النوبة حتى بلاد سنار رفعوا اعلام العصيان وهبوا هبوب النار
من سنة الكرى

واتى الدفتردار مظالم تشيب من هولها الاطفال ويتناقل ذكرها
الخلف عن السلف ولم يبق من مدينة شندي العامرة سوى اطلال تغمرها
غدران الدم وقد تمكن السياح الذين انتجعوا السودان في السنة التالية وما
يليه من روية عدد كبير من الناس الذين افرغ عليهم الدفتردار كوءوس
الحمام . فهذا اذناه مصلومتان وذاك عيناه مقلوعتان وذلك انفه مجدوع
وغيره لسانه مقطوع وسواه اسنانه محطمة . . . وهذه المرة فتحت
السودان فتحا حقيقيا ومع ان هذه البلاد متصلة بالقطر المصري بالوحدة الجغرافية

فقد انفصلت عنه منذ الفي سنة اي منذ تضعض ار كان سلطنة الفراغة الواسعة
الارباء . وقد اضاف محمد علي باشا الى جميع القابه لقب الغازي واوشك
بواسطة تدخله في بلاد الاغارقة ان يرفع القطر المصري الى درجة الممالك
العظمى





ابراهيم باشا المصري

[REDACTED]

=٤=

حرب المورة = الخلاف بين محمد علي باشا والسلطان

محمود الثاني

وفي مفتح سنة ١٨٢٤ كان ثوار الاغريقين ظافرين في كل ناحية في البحر بواسطة الحراقات وفي البر بواسطة الجوع والعطش الذين اضطروا الحاميات المحاصرة الى التسليم فلم يتردد السلطان محمود الثاني في امر استنجاد خديوي مصر وانعم عليه بولاية المورة مفوضا اليه امر فتحها وحينئذ صاح احد وزراء محمد علي باشا قائلا « فلينزع الله التيجان عن رؤوس ملوك الارض طرا ويضعها على مفرقك لانها تخصك فانت بونا برت افريقيا » ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي استنجد فيها السلطان عامله الشديد البأس فان حسن باشا صهر محمد علي باشا كان قبل ذلك الحين بستين قدا عا د مياه السكينة الى مجاريها في جزيرة كريت والجبأ العصاة الى الاخلا د الى الطاعة

واستفرغ محمد علي باشا كل مجهوده لارضاء السلطان مولاه لانه كان يعتبر تلك المهمة شرفا عظيما له ولا سرته ويرى امامه سبيلا مفتوحا للتنكيل بقراصين اليونان الذين كانوا قد غزوا مياه مصر وعاثوا فيها فسادا وقبل ان تستكمل معدات الحملة ويصير الزحف مستطاعا نفذ صبر محمد علي باشا فامر قسما من الاسطول بالاقلاع بثلاثة الاف الباني لمباشرة تلك الحرب التي كان ميالا بجملته الى اضرام مواقد ها فانطلقت السفن ميممة جزيرة كاكسوس واستولت عليها ليل اليوم التاسع عشر من شهر حزيران وفي

٣ تموز استولى خسرو باشا قائد الاسطول العثماني على ابصارا
وكان لسقوط تينك الجزيرتين المعتبرتين حصنا منيعا للقرايين يتعذر
علي اي كان الاستيلاء عليهما رنة ابتهاج في قلوب المصريين والالباين المحتشدين
في نغر الاسكندرية وعددهم سبعة عشر الفا لمشاطرة اخوانهم القتال في المعارك
الدائرة فيها رحي الحمام

وفي ١٠ تموز سنة ١٨٢٤ جرت في عرض البحر سفائن الاسطول
المصري بقيادة ابراهيم باشا الذي فعل في بلاد العربية افغالا جعلت اسمه فيها
مرهوبا وبعد معاركة الريح الشمالية العنيفة مدة اربعة وعشرين يوما تمكن
بطل مصر من الوصول الى خليج مقري والقاء المراسي فيه . وفي اول ايلول
اجتمع بخسرو باشا في ميناء بودرون وبعد ان الحق به ميولي قائد الاسطول
الاغريقي الاكبر خسارة جسيمة ومع ما كان الشتاء يتهده ببرده القارس استطاع
ابراهيم باشا ان يصعد الى البر في مودون جنوبي المورة وكان صعوده اليها في ٢٤
شباط سنة ١٨٢٥ وقد تم بذلك الامر نذرا كان قد نذره في الاسكندرية منذ
ثمانية اشهر وهو الا يطاء اليابسة باخصيه الا عند سواحل المورة

وكان النصر محالفا للمصريين في بدء الامر فظفروا بالاغريقين في مواقع
ومناوشات عديدة حتى توهموا ان بلاد الاغارقة ستدخل برمتها في حوزتهم
ولكن ما لبثت الاقدار ان هبت لمناوتهم وافقدتهم الثمار التي كانوا يعللون
نفوسهم باجتائها من تلك الحملة التي كلفتهم كثيرا من الجنود والاموال .
ففي ٢٠ تشرين الاول سنة ١٨٢٧ نكب المصريون نكبة الية بفقد اسطولهم
في نافاران ثم ان البعثة الفرنسية التي تولى قيادتها الجنرال ميزون اضطرت
ابراهيم باشا ورجاله الى الانسحاب من بلاد اليونان والخروج منها خروجاً نهائياً

والعودة الى بلادهم

وفي ٩ تشرين الاول سنة ١٨٢٨ دخل ابراهيم باشا ثغر الاسكندرية بعد ان تغيب عنه اكثر من ثلاث سنوات

ويزعم بعضهم ان البعثة الفرنسية التي سيرت الى المورة لم تكن في واقع الحال سوى حيلة لجأ اليها المسيود روفتي قنصل فرنسا في الاسكندرية ومالاه عليها محمد علي باشا والسبب في ذلك هو ان الخديوي كان محتاجا الى الصلح لتنظيم جيشه وترميم ماله و كان الشعب المصري قد صار الى حالة يرثى لها من جراء ثقل الضرائب التي ابهطته وفقدانه عددا كبيرا من ابنائه الذين هلكوا في الحروب المتوالية ولكن لما اعلنت الحرب بين روسيا وتركيا لم يسع محمد علي باشا ان ينسحب من القتال مخليا المورة دون ان يتعرض لانقضاء صواعق سخط السلطان مولاه على رأسه واستياء الامة الاسلامية منه ومن ثم اضطر الى التظاهر بانه انسحب مكرها ولم يكن من غاية للبعثة الفرنسية الى المورة الا ايجاد عذر كاف لخروج ابراهيم باشا من بلاد اليونان وسكوت الدولة العثمانية عن تقاعده عن نجدتها ومساعدتها

ولم يكن ذلك العذر كافيا لتبرئة ساحة محمد علي باشا في القسطنطينية مع ما بذله من التحفظ للتظاهر باستياء شديد لعدم تمكنه من نجدة مولاه السلطان فصار الباب العالي ينظر اليه بطرف الريبة وشعر الخديوي بتنكر القسطنطينية عليه وسقوط نفوذه فيها وكانت حملة المورة قد جعلته ينفق عشرين مليونا من الفرنكات ويفقد قسميها من جيشه وكل اسطوله الذي تحطم وهاك في نافاران فالتمس لنجده ابراهيم ولاية الشام مكافأة له على خدمه فرفض التماسه هذا وانعم على ابراهيم باشا بولاية جزيرة كريت فكانت تلك

تضرسلطته اكثر مما تنفعها فحينئذ استاء محمد علي باشا من رفض السلطان ما كان قد التمس منه وابتى ان يؤدى اليه الاتاة السنوية المضروبة على مصر مدعيا بان الحرب الاخيرة قد استنزفت كل ما كان لديه من المال فلم يتجراً السلطان محمود الثاني على معاملة عامله بالعرف لانه كان في ذاك الحين قد وقع وثيقة / ادرنه المجحفه بحقوق السلطنة وكان ايضا يرفع الصوت محتجاً على فتح
الفرنساوين لبلاد الجزائر .

ولم يقف الخديوي الهابة في صدره رياح المطامع عند حدود ذلك
العمل الدال على طموح بصره الى الاستقلال بل مال الى احتلال سوريا
لاعتباره استملاكها امراً ضرورياً لتوطيد اركان سلطته في مصر وتأمين مستقبله
فيها . ولقي لديه حجة مكنته من غزوها فان والي عكا ابى ان يرد اليه ستة
الاف فلاح مصري هربوا من السخرة

وسنة ١٨٣١ زحف ابراهيم باشا بجيش مصري على بلاد الشام ففتح
غزة ويافا وحاصر عكا وبعد ستة اشهر سلمت له تلك المدينة فدخلها ظافراً وكان
دخوله اليها في ٢٧ ايار سنة ١٨٣٢

ودخل الجيش التركي سوريا ليطرد ابراهيم باشا منها ولكن هذا الاخير
هزمه في حمص بحملته عليه حملة صادقة بالسيوف والحراب وكانت خسارة
المصريين في تلك الحملة مائة وجنديين وخسارة الاتراك خمسة الاف مقاتل
وذخائر كثيرة وقد فتح ذلك النصر الباهر في وجه المصريين ابواب ولايتي
حلب وسوريا وانكسر جيش اخر للاتراك في قونية قوامه ستون الف
محارب انكساراً حقيقياً

ولما ضاقت الحيل في وجه السلطان محمود الثاني واعياه امر عامله وخاف

من استفحال شأنه طلب من روسيا تدخلها في المسألة فبادره القيصر الى سوق الجيوش الى القسطنطينية وكان الاميرال روسان قد نصب سفيراً لفرنسا في القسطنطينية في اثناء ذلك الحين وفوض اليه ان يبذل الوسع لتخليص السلطان من حماية روسيا ومن الحملة المصرية فلقى امامه مشقة كبرى وصعوبة عظمى فعالج ان يهول على محمد علي باشا ليحمله على الاكتفاء بالامتيازات التي يسخه اياها السلطان ولما لم يصب مبتغاه انضم الى سفير انكلترا موملا ان يقنع محمودا بقبول الشروط التي يقترحها الخديوي . وكان الاسطول الروسي قد دخل البوسفور فرضي السلطان محمود الثاني بان يمنح الخديوي مطالبه وثبته بموجب وثيقة كوطاهيه في حكومة مصر والحجاز وكريت وترك له كل سوريا ولابنه ابراهيم باشا ولاية ادنه وعلى هذا الوجه انقضى الشطر الاول من هذا الخلاف فكان الربح فيه للخديوي وقد جرى ذلك الاتفاق في ١٣ ايار سنة ١٨٣٣

وكانت وثيقة كوطاهيه مجعنة بحقوق السلطنة ومحقرة لمقامها ولذلك لم تكن من الوثائق المتينة الاركان وكان الخديوي من جهة اخرى وقت ما اصبح ولي الامر والنهي بشكل نهائي ثابت في القطرين السوري والمصري يبتغي ان يجعل الولاية وراثية في اسرته تنتقل من السلف الى الخلف وان ينشئ سلالة تشبه سلائل الملوك جاريا على نفس المنهاج الذي جرى عليه نابوليون بوناپرت وكان محمد علي باشا داهية في السياسة فاغتم الفرصة من الاستياء الناجم في لندن وباريس عن عقد وثيقة انكيار سكيلاسي واقتراح على انكلترا وفرنسا والنمسا ان يعترفن به سلطانا مستقلا وكان ممكنا ان يكون ذلك الاقتراح سببا لاضرام نار حرب اوربية عمومية فارتعدت فرائص اولئك الدول

الثلاث عند افتكارهن بامكان حدوث تلك الحرب الطاحنة الهائلة ونبذ طلب الخديوي نبذ النواة فلم تخر عزائم محمد علي باشا لذن احباط مساعيه هذه المرة وعالج ان يصيب بالحيلة ما لم يكن قادرا ان يصيبه بالقوة . ان محمد علي باشا كان يعلم ان للنساء على السلطان محمود الثاني تأثيرا شديدا فارسل الى القسطنطينية بمهمة فوق العادة زهراء الحسيناء ايم ابنه اسمعيل فهذه المرة لم يكن للاغواء شأن يذكر عند السلطان محمود الثاني لان بغضه كان يفوق غرامه ولم تتمكن زهراء الحسيناء من امتلاك فؤاده والتصرف به كيف شاءت وكانت الحرب التي اوقفت الدول الاوروبية رحاها منذ سنة ١٨٣٣ موشكة ان تعود وكان السلطان محمود الثاني هذه المرة البادى بشهر الحرب فان عامه لم يكن منذ تسع سنوات قد دفع له الجزية السنوية

وصدر امر السلطان محمود الثاني الى حافظ باشا قائد الجيش التركي بان يعبر نهر الفرات وكان يريد معاينة محمد علي باشا ونجله ابراهيم باشا لتمردهما عليه ولكن ابراهيم باشا بمعاونة الميرالاي سيف الفرنساوي مزق شمل الجيش التركي في معركة هائلة امام اسوار مدينة نصيب في ٢٤ حزيران سنة ١٨٣٩ وقتل منه مقتله عظيمة واصاب غنيمة وافرة . وكان يستطيع هذه الدفعة ايضا ان يدمر السلطنة العثمانية ويدخلها في خبر كان . وينا هو بهم باجتياز مضائق جبال طوروس واقفه اليوزباشي كايه حاجب المشير سول الفرنساوي واعدا اياه بان فرنس تساعد على الحصول على كل ما يامل نيله بقوة جنوده المظفرة وفي اول تموز لفظ السلطان محمود الثاني انفاسه المعدودة وقد انهكته معاقرة الخمرة والمتاعب الناشئة عن قلى لا تخمد ناره وخلفه ابنه عبد المجيد وله من العمر سبع عشرة سنة صعد السلطان عبد المجيد على

سرير السلطنة في احوال حرجة للغاية فقد كانت السلطنة مستهدفة لسهام
مخاطر تتوعد كيانها وكان احمد فيضي باشا اميرال الاسطول التركي مقربا
من السلطان محمود الثاني فلما استوفى مولاه بخته من هذه الدنيا خشي ان
يتغير عليه قلب خليفته فيفصله من منصبه فخرج بالاسطول من البوسفور واجر
به الى الاسكندرية ليسلمه الى الخديوي وحينئذ تحقق محمد علي باشا ان مستقبله
مضمون وانه يستطيع ان ينال من السلطان كل ما كانت نفسه طامعة به
وابصاره طامحة اليه وقد اسعده الحظ بان يكون السلطان الجديد عاجزا عن
مقاومته ومحاربته فعرض عليه السلطان عبد المجيد ان يتوارث اعقابه الحكم في
القطرين المصري والسوري وكان من امر تدخل الدول الاوروبية العظمى في
الخلاف الطارئ بين السلطان وعامله ان المسألة التركية المصرية اصبحت
مسألة اوروبية





تدخل الدول الأوروبية = اذلال الحديوي

وكانت فرنسا قد صممت على توقيف محمد علي باشا في نصف الطريق السائر فيها الى غاية الانتصار مع محافظتها على مولاتها له واما انكثرا التي كانت تحسد فرنسا على ما اصابته من النفوذ في البحر المتوسط وفي القطر المصري فقد جاهرت بوجوب المحافظة على كيان تركيا والتصدي لكل من تحدته النفس بتجزئتها واضعافها . وعمد بالمرستن وزير خارجية انكثرا وداهية سياستها الى اجراء بعض المفاوضات في ذلك الشأن رجاء ان يبلغ امنيته وينتهي الى متوخاه . ففني مفتتح الامر اقترح على وزارة سول وجوب الاتحاد في العمل منعا لتدخل روسيا في شئون تركيا الداخلية ثم انه تمكن في ٢٧ حزيران سنة ١٨٣٩ من اقناع الدول الأوروبية الخمس العظمى بوضع مذكرة اجماعية تثبت اتحادهم وعزمهم على التدخل في حوادث السلطنة العثمانية وبعد ذلك سعى للتقرب من روسيا فاعتنم القيصر نقولا تلك الفرصة لاختاد ليهيب عواطفه العدائية نحو الحكومة الفرنسية وكان يعلم من جهة اخرى ان خديوي مصر يمكنه اذا ما ظهر على مولاه السلطان ان يصير خصما اشد باسا من السلطان ذاته

وانفذ غيزو سفيراً الى لندرة ليقنع الحكومة الانكليزية بوجوب المحافظة على الوفاق المعقود . منذ عشر سنوات بين الدولتين الدستورتين اللتين في

غربي أوروبا ولكنه مع ما بذله من الجهد لقضاء تلك الببانة لم يدرك الوطر المروم وعقدت انكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا على غير معرفة منه في ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ وثيقة لندرة وغايتها حصر سلطة محمد علي باشا في ولاية القطر المصري التي يتوارثها اعقابها فيما بعده وفي ادارة قسم من القطر السوري مدى حياته. وارجاع جزيرة كريت وفتوحه الاخرى الى الدولة العثمانية وقد اهل عشرة ايام لاجراء منطوق ذلك القرار ولما ابى الاذعان لما اتفقت عليه كلمة الدول الاربع المشار اليهن ابحر الاسطول الانكليزي بقيادة الاميرال نايبه الى المياه السورية واطلق قنابله على ثغري بيروت وعكا

وكانت فرنسا تنظر الى تلك الاعمال والاستياء الشديد بالغ منها لانفراد الدول الاربع عنها وتصرفهن على هواهن بامور تهمها جدا وهن غير مكترثات لها فتأثر الرأي العام الفرنسي من تلك الامور وكان الشعب بجملته يميل الى الحرب للانتقام لكرامته ممن حاولوا الغض منها ونظم الشعراء القصائد الحماسية الرنانة التي دوى صداها في جميع انحاء فرنسا حتى ان الجميع كانوا يتغنون بالايات التي نظم عقدها الشاعر المطبوع الفرد دي موسه ومطلعها « لقد شاهدنا غير مرة رينكم الالماني » فان اعداء فرنسا الذين اعلنوا الخصومة سنتي ١٧٩٢ و ١٨١٥ هبوا من رقبتهم يتهددون البلاد الفرنسية بالدمار والويل ولم تغفل الحكومة الفرنسية نفسها عن التدرع بجميع الذرائع الضامنة لها الدفاع عن دمارها والذود عن حياضها فدعت جميع الجنود لان يكونوا على اهبة الانطلاق الى الروع وعززت اسطولها وحصنت مدينة باريس ولكنها كانت في الوقت عينه تعلم ان الاعتدال والتوعدة امران ضروريان للبلاد فاستقدمت اسطول البحر المتوسط من سالامين الى طولون

مخافة ان يطرأ امر لا يكون في الحسبان وتجنباً لحدوث مشاكل توءدي الى حرب طاحنة والعياذ بالله . وقد قال احد الوزراء « كثيرا ما يحدث ان المدافع تنطلق من نفسها » ونصحت الحكومة الفرنسية لمحمد علي باشا ان يذعن لقرار الدول وجاهرت بمذكرة نشرتها في ٨ تشرين الاول انها لا تتدخل في الشؤون الحاضرة الا عند مهاجمة الدول لمصر ومحاربتها واختلس الباب العالي تلك الفرصة وتظاهر الدول بالانتصار له واصدرا امرا عاليا بحرمان محمد علي جميع امتيازاته الممنوحة له قبلا

ولما الفى محمد علي باشا ذاته منفردا ورأى انه لا نصير له ولا معين اضطر الى الاذعان لمقتضيات حالته المحفوفة بالقنوط وفي ٢٧ تشرين الثاني وقع وثيقة يعترف بها بانه يكتفي بولاية مصر على ان تكون وراثية في سلالته وقد قضت عليه الاحوال بان يلجأ الى الدول اللواتي اذللنه ويستنجد بهن ليلتمسن له العفو والرضى من السلطان مولاه فحينئذ فتحت ابواب مفاوضات جديدة لم يلق محمد علي باشا ندحة عن التسليم بنتائجها بغير شرط فارجع الاسطول العثماني الى الباب العالي وخرجت الجنود المصرية من سوريا وجزيرة كريت ولما تم كل ذلك طلب ممثلو الدول الاربع المشار اليهن من السلطان ان يعفو عن عامله ويسحب الذيل على ما كان منه ورفعت الى السلطان مذكرة بهذا الشأن صادرة عن مؤتمر لندرة فاصدر السلطان خطين شريفيين مؤرخين في ١٣ شباط سنة ١٨٤١ يثبت بهما محمد علي باشا في ولاية مصر بطريقة وراثية واحتفظ الباب العالي لنفسه بصفة كونه صاحب البلاد حق تسمية كبار رجال الجندية في مصر من قائد الجيش الاكبر حتى الامير الاي وتعهد الخديوي بان يجري بموجب القوانين والنظامات العامة

انجاري العمل . بموجبها في السلطنة وان يستمد التفويض من السلطان بزيادة قواته البرية والبحرية وصدر امر خاص فيما يتعلق بتنظيم الجزية وعلى هذه الصورة اصبح الوزير الانكليزي ناعم البال من جهة بلاد الهند مورد ثروة حكومته وبلاده ففازت سياسته وحل نفوذه محل النفوذ الروسي لدى السلطان وحفظ السلطنة العثمانية من التضعف والتجزئة وكسر فرنسا كسرة اديية مؤلمة ومهد في وجه حكومته السبيل لاحتلال القطر المصري في مستقبل الايام

ومنذ سنة ١٨٤٠ فصاعدا عدل محمد علي باشا عن المشاريع الخارجية المهمة لان النكبات الاخيرة اخمدت نيران مطامعه الملتبهة فقلل عدد جنوده وحصر اعماله في مزاوله الاشغال السلمية العائدة على بلاده بالرقى والعمران وسندكر ما كان من امره في الخطة الجديدة التي توخى انتهاجها مظهرين ما كان له من الصفات الشخصية فيسهل على القراء ابراز الحكم على ذلك الرجل المصلح الذي بلغ بالقطر المصري غاية لم يكن قد بلغها منذ عهد الفراعنة
الاقدمين

= ٦ =

صورة محمد علي باشا الادبية = صفاته ومعاييه = حمايته للزراعة

والتجارة = ترع النيل

سنة ١٨٣٩ بعد معركة نصيب ضرب نوط في فرنسا كتب عليه
حول صورة الظافر « محمد علي مجدد مصر » فلننظر الان هل تنطبق
هذه الكتابة عليه وقد انقسمت اراء المؤرخين وتشعبت معتقداتهم فيه .
فمنهم من يرى فيه بطليموس جديدا احياء اموات مصر ورمم ما تداعى من صرح
مجدها ومنهم من يرى فيه متشردا خدمه الحظ وساعدته الاقدار وطماعا سفاحا
الانانية قائده والظلم مرشده . وعندنا انهم جميعهم قد بالغوا في حكمهم على
محمد علي باشا فالاولون لم يروا في جميع اعماله سوى حسنات والآخرين
سوى سيئات

وكان محمد علي باشا ربعة القامة بارز الجبين كث الحاجبين اسود العينين
صغير الفم باسمه كبير الانف احمره قوي البنية يتهدى في مشيه وبتأق في
ملاسه ومع ذلك لم يكن في قصره شي مما يدل على بذخ المرازبة الاسيويين
واسرافهم فكان حاجب واحد يقيم على بابه وكان يحضر المجلس وهو لابس
ثوبه العسكري دون ان يكون متقلدا السلاح وكان مولعا بلعب البلياردو
والشطرنج وكل يوم كان يلعبهما مع القناصل الاورويين او بعض ضباط
الجند او بعض الجنود

وكان شديد التأثر سريع الحدة يصعب عليه كثيرا التسلط على انفعالاته النفسانية الناجمة عن: بعض الاسباب الفجائية وكثيرا ما كان اصحاب الدسائس يتخذون ذلك الامر وسيلة يصيرون بها اغراضهم وماربهم وكان يهيم كثيرا ان يعلم ما يقوله عنه الا جانب لما كان عليه من شدة الغيرة على مجده وسوءدده ولذلك كان يأمر بان تترجم له جميع اقوال الجرائد الاوروبية المتعلقة به وكانت صحيفة من صحف ازمير تنتقده بلهجة عنيفة حاملة عليه حملة شديدة فقال « افضل ان اعطي مليوناً من الريالات ولا تكون هذه الجريدة قد ظهرت وانا المخطيء بقاء هذه الجريدة في عالم الصحافة فقد كان صاحبها ميالا الى اطرائي ولكنني لم احسن مجاملته »

وكان محمد علي باشا في بدء امره اميا فتعلم القراءة وهو في الخامسة والاربعين من العمر على ان تعلمه الذي جاء متأخرا عن حينه كان يبين ما هو عليه من الجهل في بعض الاسئلة التي كان يلقيها . فذات يوم كانوا يطنبون في حضرة بالصورة التي صنعها هوراس فرنه المصور المشهور عن نكبة الممالك فقال محمد علي باشا « يستطيع هذا المصور ان يصنع صورة اخرى مماثلة لهذه الصورة عن نكبة بونابرت للممالك في مرسيلا »

وكان محمد علي باشا مع سذاجته الطبيعية ذا خلق حاد يميل الى الاستقلال في الرأي وكثيرا ما كان يجري امورا انزل الله بها من سلطان تدل على استبداد منكر فذات يوم رأى في حديقة قصره زهرة لطيفة من فصيلة الاضاليا فاعجبته كثيرا وامر البستاني ان يضع تلك الزهرة في صندوق وينقلها الى تحت الجميمة بجانب غرفته ليتمكن من رؤيتها دائما فابدى البستاني له ملاحظته بان الزهرة تذوي اذا ما نقلت ولكنه لم يكثر ملاحظته فاضطر ذلك

البستاني المسكين الى الطاعة للامر ولما كان من الغد نظر محمد علي باشا الى الزهرة فوجدها ذابلة وقد خنت رأسها على ساقها الطويل فامر البستاني ان يحضر لديه ويجلد بالسوط ويينا هم يجلدونه كان يقول . يا مولاي لا يمكنك ان تجعل النباتات تطيعك كما يطيعك البشر . وبعد ان تفكر محمد علي باشا مليا في ذلك الامر امر بان يكفوا عن جلد البستاني ثم انه ارسل اليه هدية فاخرة

واذا كان هذا الخديوي قد برهن في مواقف عديدة عن شهامة وعزة نفس شوكرهم اخلاق واذا كان قد ابى ان يسلم الباب العالي للاجئين اليه واذا كان اليونانيون الذين في مصر قد صينت ارواحهم واعراضهم ومقتنياتهم وظلوا في مناصبهم في اثناء حملة ابراهيم باشا الى المورة فليس ذلك ناجما عن حب مجرد للنزاهة والمروءة

ونشر محمد علي باشا قانونا بنيت اركانه على الحرية ولكنه لم يوضع قط موضع الاجراء وكان من جملة مواد ذلك القانون مادة تقضي على عظماء البلاد وكبرائها ان يمتنعوا عن معاقبة ارقائهم بالموت وحدث بعد اذاعة هذا القانون بعشرة ايام ان مختار بك الذي كانت له اليد الطولى في وضع ذلك القانون وتبويبه وتنظيم بنوده غضب على اعرابي مسكين كان متقيدا في خدمته فاماته تحت ضرب السياط وكان محمد علي باشا يقول جهارا « ان رأس الفلاح لا يوازي شعرة من رأس التركي » ولم يكثرث القوم في مصر للقانون الجديد بل ظلوا يعذبون الفلاحين بالاجر المحمي على النار ويغرزون المسامير في اذانهم ويشبعونهم ضربا بالسياط وقد اطلق على محمد علي باشا من جراء تلك المظالم الحادثة في ايامه لقب « ظالم باشا »

ولم يكن محمد علي باشا شديداً للدين بل كان كمواطنيه اللبنانيين يتزياً بالدين في الظاهر ومع ما كان في القطر المصري من الوسوس الدينية المنتقلة من المتقدمين الى المتأخرين لم يحجم عن القبض على الحجاج عند عودتهم من البيت الحرام واجبارهم على الانتظام في سلك الخدمة الجندية ولم يكن شيء من الاشياء يصده عن جمع المال بآية طريقة كانت فكان يقول «ان الشع بيجب ان يعامل كما يعامل السمسم اي ان يداس ويسحق ليخرج منه الزيت» وقد جرى على هذا المبدأ في جميع اعماله الادارية

وكانت مصر قد دخلت في حوزة الاتراك منذ عهد السلطان سليم الاول الذي افضى اليه الملك سنة ١٥١٢ وهكذا انتقل مسند الخلافة الاسلامية من اخر خلفاء العباسيين المتوكل على الله الذي كان مقيماً في القاهرة الى السلطان سليم والى خلفائه من بعده وكان السلطان سليم الاول اول من لقب من سلاطين ال عثمان بخليفة الاسلام الا ان الحكام الاتراك الذين كانوا يرسلون من القسطنطينية الى القطر المصري لتولي الشؤون فيه لم يكن لهم من السلطة سوى الاسم ومن النفوذ سوى الظل فان اصحاب الامر والنهي الحقيقيين في البلاد كانوا البكوات او المماليك الذين كانوا يستنزفون خيرات البلاد ويمتصون دماء العباد ويحملونهم من المظالم اوقاراً تنوء بهم فكانت جميع الاراضي للمماليك الذين لم يكونوا يتركون للفلاحين الارقاء سوى قسم يسير من نتاج اعمالهم وحاصلات اراضيهم يرد عنهم الموت جوعاً

ولما جاء محمد علي باشا وقبض بيديه على ازمة السلطة في بلاد مصر وخلف المماليك في ادارة الشؤون باشر قبل كل شيء الاستيلاء على جميع العقارات ولم يعوض على المغتصبة منهم الا بمرتب يسير يتقاضونه مدى الحياة.

ولما صار بهذا الاغتصاب صاحب الوحيد لارض مصر فوض امر حراثتها وزراعتها الى الرعية معتبرا اياهم مزارعين ولما كان صاحباً للارض كان له ملء التصرف بها وكامل الحرية بزراعتها كيف شاء ومن ثم صار يتدخل في امر زراعة ما يرتثيه ملائماً ويشترى حصة المزارعين بالاثمان التي يريدونها . ولقائل ان يقول وكيف كانت تجري ادارة تلك الارض . فنجيبه ان ذلك كان امراً في غاية البساطة والفلاح كان ينتظر صدور الاوامر اليه بما يجب ان يزرع به ارضه وهو حامل معوله او منحن فوق محراثه وعلى مقربة منه جندي تركي بيده سوط ولم يكن احدي يعلم اي نوع من الزرع يلقيه في التربة لتأخر ورود الاخبار من اوربا على الخديوي عن اسعار الحبوب في الاسواق وعن الاصناف التي تلائم زراعتها اكثر من سواها . وينا جميع على حبل الانتظار واذا بالنشرات التجارية قد وصلت وفيها الماع الى ارتفاع اسعار القطن فيبادر الخديوي لساعته الى اصدار الاوامر بتعميم زراعة القطن في جميع انحاء القطر وحينئذ يسرع حكام النواحي الى اشعار نوابهم بامر الخديوي وهو لاء يبلغون الامر الى الاغوات الذين يوعزون الى الجنود المقيمين بين الفلاحين بوضع الامر السامي موضع الاجراء وطريقة تبليغ الجنود الامر الى الفلاحين مخاطبتهم اياهم بلسان السوط على ظهورهم وترخيصهم لهم بمباشرة حراثة الارض وزرعها قطناً . ولا يقف الامر عند هذا الحد فان القطن نبات صيفي يحتاج الى الماء الذي تسقى به التربة بواسطة النواعير ولا تكون ادوات تلك النواعير المصنوعة من الخشب في حالة تمكنها من رفع المياه ففي الحال تجري حركة لتبليغ الحالة الحاضرة الى المرجع الاعلى فيرفع واقع الحال من الأدنى الى الأعلى بالتسلسل حتى

ينتهي الى دائرة الخديوي الخاصة . وهناك يقرر اعطاء الخشب والمسامير
والحبال اللازمة لاصلاح النواعير

وتصدر نشرة بتوقيع حاجب الخديوي الاكبر تدل على المكان
المودعة فيه تلك المواد وكثيرا مايكون الوقت قد فات حينما تصل المياه الى
المواضع المراد ريها ويكون القطن قديس

ان الفلاحين وان لم يكونوا اصحاب رقبة الارض لا ينجون من
دفع الضرائب الباهظة الموضوعة على تلك الارض

وكتب احد المعجبين بالخديوي ان الضرائب كانت تتناول كل شيء
فلم تكن تنحصر ببعض حاصلات الارض بل كانت تعم كل شيء وتوضع
باسماء مختلفة واشكال متنوعة وتحول الى نضار كل ما تعثر عليه حتى ان
عرق المسكين كان يتحول حتى اخر قطرة منه الى ذهب

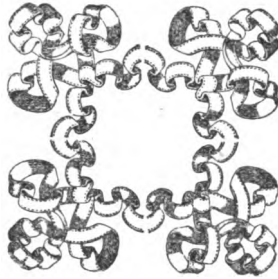
وكانوا يدفعون الى المزارعين المساكين ما يصيبهم من نتاج الارض
قراطيس مالية ليقبضوها من الخزينة الخديوية فيضطرون الى قطعها وخسارة
ثلاثين او اربعين في المائة من قيمتها الاصلية . ولم يكونوا يقدرون ان
يتناغموا لابسهم اودواتهم والمواد الغذائية الا من مخازن الحكومة باثمان باهظة
جدا وكان محمد علي باشا قد سن شريعة تقضي على جميع مقاطعات بلاده
ونواحيها وقراها بالتكافل والتضامن من جهة دفع الضرائب للحكومة

واحفنر الخديوي على ضفتي النيل اقية جديدة واصلاح الترع القديمة
ليزداد مقدار الاراضي المزروعة ويكثر خصبها . وعاد محمد علي باشا الى
ابرار فكرة بونابرت الى حيز العمل اي انه عاد الى انشاء الخزان العظيم
عند فرعي النيل في رشيد ودمياط لرفع المياه اعلى من الذلتا وبناء سدود

وترع يستطيع بواسطتها ان تسقى الاراضي بطريقة منظمة ومن جملة الاعمال الكبيرة التي باشرها الخديوي محمد علي باشا ترعة المحمودية الممتدة بين الاسكندرية والنيل وقد نجز بناءها في عشرة اشهر سنة ١٨٢٠ وهلك فيها اثنا عشر الف عامل ويمكن ان يقال ان هذه الترعة قد بذل من الارواح في سبيل بنائها اكثر مما بذل من المهج في سبيل فتح بلاد النوبة العليا والسفلى

ولم يكن ذلك الخديوي الداهية يشاء ان تظل بلاده مضطرة الى استجلاب حاجاتها من الخارج فانشأ المعامل والمصانع والمختبرات والمعاهد جريا على ما هو جار عند الشعوب المتقدمة . وانفق من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٣٠ اربعة عشر مليوناً من الفرنكات ثمناً للمواد اللازمة لتلك المعامل والمصانع ولما كان موقعها في جهات مختلفة من الصعيد والذلتا وخصوصا في القاهرة وضواحيها كانت تضم من العملة نحواً من اربعين الفا الا ان معظم تلك المعامل والمصانع لم تكن تأتي بالفائدة المطلوبة لان الشعب المصري لا يميل ابدا الى الصناعة . وكان الخديوي محتكراً صادرات القطر المصري برمته وكان يجني من وراء ذلك ثمار المنافع الوفيرة ولا سيما عندما يعلم المرء الاثان التي كان يدفعها عند ابتياعه من الفلاحين حاصلات ارضهم وتاج مواشيهم والاثنان التي يبيعها بها للاروبابوين فكان يشتري جلد الجاموس مثلاً بخمسة وعشرين قرشاً ويبيعه بمائة وخمسة وعشرين قرشاً ويشترى قنطار البن بثلاثمائة قرش ويبيعه بضعف هذا الثمن . وقنطار القطن بمائتي قرش ويبيعه بستمائة قرش وهلم جرا . فهو الذي يحدد اسعار البيع واسعار الشراء فيخفض الثاني كيف شاء ويرفع الاول بقدر استطاعته

ولم يكن من مسيطر عليه او مزاحم له . وكانوا يقدرون ربحه السنوي من
وراء تلك التجارة بثلاثين مليون فرنك
ذكرنا موارد ثروة الخديوي وقد بقي علينا ان نبين طرق استعماله لها
والجهات التي كان يصرفها فيها





اسمعیل باشا

=V=

الجيش = الاسطول = المدارس

لا يخضع الشريون الا للقوة . فكان المبدأ المأثور عن الاقدمين
 « وترعاهم بعضا من حديد » ينطبق عليهم في كل جيل وكل عصر وقد
 عرف محمد علي باشا سر هذا المبدأ وادرك ان امتن عضد يستطيع
 الاستناد اليه لفضاء لباته من الاصلاحات التي كان ينوي ادخالها الى بلاده كان
 الحصول على جيش منظم فاراد الخديوي ان ينشئ جيشا وطنيا بدلا
 من المماليك الذين لم يكونوا سوى ارقاء جيء بهم في حوادثهم من البلدان
 البعيدة ودرّبوا على خوض غمرات الحروب . اجل ان الامر الذي توخاه
 كان غريبا في بابه مخفوا بمصاعب يعزّ تذليلها فان القوم في الديار المصرية
 لم يكونوا قد شاهدوا من قبل فلاحا مرتديا الثوب العسكري الا ان شدة
 صريمة الخديوي وقوة عزيمته جعلته يخفض من خيلاء رعيته ويخضع تمردا
 ويزيل ما كان يخامرها من الاوهام الواهية وكانت طريقة التجنيد في مصر
 مماثلة كل المماثلة لطريقة صيد الخيول البرية في غابات امريكا .
 فالجنود يوءمون القرى ويحيطون بها ثم يدمقون على الفلاحين ويوثقونهم
 ويسوقونهم امامهم وعيالهم تسير وراءهم دارقة الدموع
 وقد بلغ عدد الجيش المصري بهمة الكولونيل سيف الفرنساوي الذي
 صار فيما بعد يدعى سليمان باشا مائة وثمانين الف مقاتل وجميعهم منظمون

على قواعد الفن الحربي كفضل الجيوش الأوروبية بإدارة ضباط من الأتراك

ولم يكن إنشاء الأسطول المصري يخلو من التعجب ولا سيما في مثل تلك البلاد السائد فيها الجهل والعادات القديمة السخيفة فإن مهندسا من مهندسي البحرية الفرنسية يقال له المسيو دي سيريزي صير ساحل الاسكندرية الذي يصعب دنو السفن منه مسلحة منيعة وفي ٣٠ حزيران سنة ١٨٣٧ خرج من تلك المسلحة سبع سفن من الطبقة الأولى وسفینتان من الطبقة الثانية وثمان عشرة سفينة أخرى مختلفة الطراز ومركب بخاري وكان في ذلك الأسطول ١٤٦٠ مدفعا و ١٠٢٧٢ بحارا

وكانت تلك المنشآت الحديثة محركا لجمود الأفكار وخمود الهمم وخمول القوم في القطر المصري فشيدت معاهد عديدة للعلم تقاطر إليها أبناء الخاصة من كل حطب وصوب وأما أبناء العامة فقد سيقوا جبرا إليها لان الخرافات السائدة على عقول العامة كانت تجعلهم ينفرون من كل شيء جديد . وظلت الحكومة الخديوية مدة طويلة تجري الرزق على طلبة مدارسها ترغيبا وتنشيطا لهم ليشابروا على تحصيل العلم برغبة واختيار

وابتدأ محمد علي باشا نفسه بتنشيط الرعية لأحراز العلم بتعلم القراءة وهو في الخامسة والأربعين من العمر جاء إليه أحد يراه يأتف من تلقي العلم وادخل ثاني أنجاله إلى المدرسة البحرية . ومع ذلك لم يكن محمد علي باشا من بعض الجهات كثير الإكثار للتعليم والمدارس فسنة ١٨٤٠ اختار من مدرسة اللغات ثلاثة شبان من أبرع الطلبة واتدبهم لان يكونوا طبّاخين في قصره . وسنة ١٨٣٧ أنشأ طبيب من مرسيليا يدعى

كلوت بك مدرسة للطب والجراحة في مكان يقال له ابو زابل ^{سجل}
وبعد عشر سنوات نقلت الى القاهرة وقد كان ذلك الجهد الذي
بذله محمد علي باشا لاعادة الحياة الى الجسم الذي فقدها منذ مدة طويلة
معتبراً في انظار المسلمين المتعصبين جهادا يقارنه الكفر لمناوأة ارادة الحق
سبحانه وتعالى . وكثيرا ما كانوا يضطرون في المستشفيات الى ربط
بعض المرضى باسرتهم واجبارهم على رغم منهم الى الرضى بالتداوي
لاعتبارهم ان ذلك الامر من الاعمال لشيطانية . ولم يكن نفور الناس من
الانتظام في سلك الجندية يقل عن نفور المرضى من المعالجة
ولو شئنا تعداد ما اتاه محمد علي باشا من الاعمال الخطيرة في القطر
المصري لادى بنا نفس الكلام الى مدى بعيد ولاقتضى ذلك الامر تحجير
صحائف كثيرة ولكننا نقف عند هذا الحد ونكتفي بان نبين للقارىء مما مر
بيانه ان محمد علي باشا يستوجب ان يطلق عليه التاريخ اسم معيد الحياة
الى مصر ومجدد مجدها . وكان هذا الخديوي اسعد حظا من مولاه السلطان
محمود الثاني اذ انه تيسر له ان يجري ما شاء من الاصلاح دون ان يقوم
في وجهه مثل العقبات التي قامت في وجه ذلك السلطان . والسبب في
ذلك ان مصر لم يكن فيها كما كان في تركيا في ايام السلطان محمود
الثاني هيئة اجتماعية نخر عظامها سوس الفساد وعشت بها ايدي الاحزاب
ومزقتها براثن الفتن ولم يكن في مصر تقاليد قديمة يعتصمون باهداب ظلها
ولا ماض مجيد يفاخرون به بل كانت شعب اسلامي يقدر بنحو خمسة
ملايين نفس تسلط عليهم زعيم وساقهم على هواه بعضا من حديد .
وقد عالج محمد علي باشا ان ينشئ من المصريين شعبا بنفس الذرائع التي

تذرع بها السلطان محمود الثاني . فكلاهما قصد ان ينفخ روحا جديدة
في جسم هامد كاد البلى يعث به وكادت الاوهام والتقليد تصيره اثرا
بعد عين وقد احرز محمد علي باشا افضلية لم يحرزها مولاه السلطان فاختار
من الاوروبيين اختصاصيين يعاونونه على اجراء الاصلاح الذي كان يبتغي
اجراءه وكان محمد علي باشا يقول « ان محمودا لبس الزي الافرنجي
ولكنه ظل يعمل برأس تركي وانا بقيت لابسا الزي التركي وعملت
برأس افرنجي » وهذه العبارة تكفي لوصف هذين الرجلين وصفا جليا وتبين
السبب الذي من اجله ثبت بعد موت محمد علي معظم المنشآت التي تمت
في ايامه



= ٨ =

انشاء مدينة الخرطوم = وفاة محمد علي باشا

ذكرنا قبلا ان حوادث سوريا ومالقيه محمد علي باشا من الفشل في بعثته التي قادها اليها نجله ابراهيم باشا المشهور وقفت سدا منيعا في وجه مطامعه ومندسنة ١٨٤٠ عدل عن ركوب مركب المشاريع العظيمة الخارجية حتى انه لم يعد يفكر بالسودان الا حين يعوزه المال فيعمد الى استجلابه منها وكان ذهب النيل الازرق شغلا شاعلا له فصحت عزيمته على الذهاب بنفسه ومعه جماعة من المهندسين والمعدنين الى وادي طومات التي كان يعتبرها دائما كنزا لبلاده الا ان احباط مساعيه وخيبة اماله وزيادة نفقات استخراج التبر عن قيمة المستخرج منه لم تأتته بالفائدة التي كان يتوخاها ومع ذلك لم تزايل مخيلته تلك الاوهام الفارغة.

واذا لم يكن محمد علي باشا قد ادرك ضالته المنشودة من رحلته الى السودان من جهة استخراج القناطير المقنطرة من النضار فانه اتى امرا جليلا وهو انشاء مدينة الخرطوم . وقد عين الخديوي موقع عاصمة السودان الجديدة عند ملتقى النيلين في اجمل موقع في الدنيا . عند مدخل الطريقين النهرين اللذين يمكنان من الصعود الى بطاح بلاد الحبشة او التوغل في افريقيا الاستوائية عند طرف ذلك الطريق المائي وذلك الجسر العظيم الممتد فوق بحر من الرمال والمنتهي في الاسكندرية والقاهرة والرابط عالما لا يزال نصفه

مجهولا بالعالم القديم والشعوب المتسكعة في ظلمات الجهل بالشعوب المستتيرة بمصاييح الرقي وال عمران وسنة ١٨٣٠ لم يكن سوى كوخ حقير في الموضع الذي شيدت عليه فيما بعد مدينة ما عمت ان صارت في مدة وجيزة تضم عشرات الالوف من السكان

وكان لفتح السودان نتيجة اخرى علمية كان العلماء منذ الازمنة القديمة يديرون رحى ابحاثهم عليها اي معرفة ينابيع النيل فان هذه القضية المهمة انتهت الى حلها المهندسون الذين قدموا مع الخديوي او كادوا ينتهون من حلها . بطريقة كان من ورائها فائدة تذكر في عالم العلم وكانت قوى ذلك الفاتح الداهية قد رزحت تحت اثقال الشيخوخة والمشاق الكبيرة الناجمة عن وفرة الاعمال

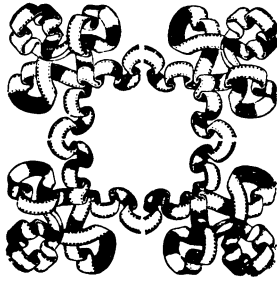
وفي شهر تموز سنة ١٨٤٦ شخص محمد علي باشا الى عاصمة السلطنة العثمانية ليؤدي لمولاه السلطان ما يجب عليه من الاكرام والاحترام والاخلاص فاستقبل في القسطنطينية استقبالا حافلا جدا يليق بالملك ويدل على ما كان لذلك الرجل من المنزلة العالية عند السلطان وكبار رجال حكومته ولكن ما لبثت الاحوال ان تبدلت واصبح مقامه في العاصمة مؤملا حتى انه احب التعجيل في مغادرتها والابتعاد عنها . والسبب في ذلك ان محمد علي باشا الذي طبقت شهرته الافاق وامتد صداها في جميع الانحاء كان كالمعيد في خلم يكد عظماء الدولة يدنون منه ويخالطونه ويرون فيه شيئا هما اكل الدهر عليه وشرب ونقضت مرته الايام حتى ارتفع برقع الوهم عن اعينهم وشاهدوا الحقيقة واستبدلوا التعظيم بالتحقير . ولم يأنفوا من جعلهم اياه يشعر بما كانوا يفكرون به عنه وما عتم السلطان ان اظهر له البرودة وما

لبث رجال حكومته ان عائلوه بالقحة فلم ير ذلك الشيخ الجليل بدا من الاسراع في العودة الى مصر وقد تولاه القنوط وعشت به الكآبة والم به الضعف وكان اخر عمل مجيد اتاه الخديوي محمد علي باشا في حياته الطويلة ترأسه الحفلة التي جرت في ٩ نيسان سنة ١٨٤٧ بحضور القناصل واربعين الفا من المتفرجين وبين قصف المدافع لوضع الحجر الاول من خزان النيل . ومنذ ذلك الحين لم يعد له من شغل شاغل سوى الاهتمام بالاسفار وبركوب مركب الرحلات وفي شهر شباط سنة ١٨٤٨ برح فجأة القاهرة منحدرًا الى الاسكندرية ومنها امتطى متن البحر ميمًا جزيرة مالطة ثم فصل عنها منطلقًا الى نابولي فاستقبل فيها استقبالًا حافلًا للغاية . وبينما هو في تلك المدينة انتهى اليه نبأ فتنة شهر شباط التي جرت في فرنسا وسقوط الملك لويس فيليب عن العرش فحينئذ جاشت في صدر الخديوي مراحل الغضب وقال من المقتضى على جميع العهال والملوك والاقبال ان يكونوا متكافلين متضامين وجعلته الدعوى ينادي بانه سيزحف في مقدمة جيوشه على مرسيليا ليفتح فرنسا ويعيد الى سريرها لويس فيليب صديقه وحليفه . فعلم جميع الذين كانوا يسمعونهم يفوه بمثل ذلك الكلام ان تلك الصدمة التي اصابته على اثر سقوط لويس فيليب اجهزت على ما كان قد بقي له من العقل

وفي ٢٧ اذار ركب خديوي مصر الباخرة الفرنسية « الاسكندر »

وعاد الى مصر وهو على جانب عظيم من ضعف الجسم والعقل ولما بلغ الاسكندرية لم يقوَ على مغادرتها الاشداد وطأة العلة عليه فنزل في سراي راس التين على شاطئ البحر ولم يعد في رأسه ذرة من العقل وفي شهر تشرين الاول نقلوه الى القاهرة ووضعوه في قصر شبرا

وفي ٢ آب سنة ١٨٤٩ حانت منية ذلك الرجل العظيم فلفظ انفاسه
المعدودة وهو في الثمانين من العمر فارق محمد علي باشا هذه الدنيا دون ان
يكثر احد لوفاته لان القوم كانوا ينتظرون مثل ذلك الحادث وبعد
وفاته يومين احتفلوا في القاهرة بمناعته احتفالا فخما للغاية يليق بمقامه وقد
دفن تحت قبة الجامع المشهور الذي شيده



== ٩ ==

ما جرى في مصر بعد محمد علي باشا

سبق لنا القول ان الاحوال قضت على الباب العالي بترك حكومة القطر المصري الى محمد علي باشا وسلالته بطريق الوراثة ولم يبق لحكومة القسطنطينية سوى حقوق السيادة الاسمية وتنصيب بعض المأمورين الكبار واصبح الخديويون منذ ذلك الحين يتصرفون في البلاد تصرف الملوك المستقلين وعبرت مصر في عهد خلفاء محمد علي باشا الاولين دورا من المجد الحقيقي فكان العلماء الفرنسيون ينقبون عن اثار الفراعنة القديمة ويعنون بدراسة تاريخها المجيد . فماريت بك اكتشف هياكل سيرابيس سنة ١٨٥١ وانشأ متحف بولاق واحرز فردينان دي لسبس معاضدة عزيزي مصر سعيد باشا واسماعيل باشا لانشاء ترعة السويس

واقضى ذلك المشروع الخطير عشر سنوات «١٨٥٩-١٨٦٩» ومبلغا عظيما من المال . وقد دشت الترعة في ١٧ تشرين الثاني سنة ١٨٦٩ الامبراطورة اوجيني قرينة نابوليون الثالث عاهل الفرنسيين وبعد ذلك لحادث من اهم الحوادث في التاريخ العام ولا يخفى ان التجارة كانت قد تحولت عن البحر المتوسط بعد اكتشاف خريستفورس كولمبوس لامريكا فاصبح ذلك البحر الطريق الواصل بين أوروبا والهند والشرق الاقصى . وقد كان ذلك المشروع بمثابة عودة الحياة الى مصر بعدما كادت تفارقها ولكن لم

يكن ذلك الامر لفائدة الدولة العثمانية ومعلوم ان سكان مصر ليسوا من الاتراك وهي تذكر انها في القرون المتوسطة كانت على جانب عظيم من اليسر والاقبال والخصب حين كان يخفق في ارجائها لواء الدولة العريية وما قلناه عن القطر المصري يمكننا قوله عن البلاد العريية والقطر السوري وبلاد ما بين النهرين واصبحت مصري في ذلك العهد عاصمة سلطنة عظيمة وقد تمكن ضابطان انكليزيان يقال لاحدهما سبيك وللآخر بايكر من انجاز حل مسألة ينايع النيل وذلك من سنة ١٨٥٨ الى سنة ١٨٦٤ واراد اسمعيل باشا ان ينشر لواء سلطته فوق تلك الاقاليم المكتشفة حديثا وفي بضع سنوات اصبحت بلاد السودان الشرقية والوادي الاعلى لذلك النهر الكبير ولاية مصرية تمتد الى خط الاستواء ولم يهض على مصر عصر من العصور حتى في عهد الفراغة انفسهم بلغت فيه من السطوة ما بلغته في عهد العزيز اسمعيل باشا (١٨٧٣)

وسكر اسمعيل باشا بخمرة العظمة فاضاع التعقل والاعتدال واراد ان يجعل القاهرة عاصمة تليق بسلطنة كبيرة فباشر فيها اعمالا جسيمة غيرت وجهها كل التغيير وفي الوقت عينه ساقط العجز على مالية الحكومة المصرية فاضطر الخديوي الى بيع ١٧٦٠٠٠ سهم كانت له في ترعة السويس فابتاعها منه انكلترا بمائة مليون فرنك ومنذ ذلك الحين صارت بالاشتراك مع فرنسا ذات نفوذ عظيم على مالية مصر

ثم ان سياسة اسمعيل باشا المالية عادت الى اقل اقواخ دأئيه الاوروبيين فاجبرته فرنسا وانكلترا على تعيين مراقبين ماليين هما الميسو دي بليير والسير ريفرس ويلسون اللذان ادخلا التوفير والترتيب على

ميزانية الحكومة المصرية . وما مكث اسمعيل باشا ان استقل وطأة مراقبتها عليه ففصلهما في اول نيسان سنة ١٨٧٩ ففاوضت فرنسا وانكلترا الدولة العثمانية مفاوضة عنيفة اللهجة افضت الى خلع اسمعيل باشا واستبداله بابنه توفيق وحينئذ عاد المراقبان الماليان الى منصبهما

وكان في اثناء ذلك ان قد تألف في مصر حزب وطني شديد النفوذ بزعامة عرابي باشا وغايته انقاذ البلاد من كل نفوذ اجنبي وتقرير استقلالها فاصلى ذلك الحزب الاوريين حربا ادية وتجارية ومالية فاضطر معظمهم الى مهاجرة البلاد وذاق الذين بقوا فيها مرارة الهوان

وعادت فرنسا وانكلترا الى التداخل في شئون مصر وارسلتا من لدهما اسطولا مشتركا الى الاسكندرية فكان من وراء وصوله الى ذلك الثغر هيجان شديد في الشعب وفي ١١ حزيران سنة ١٨٨٢ حدث اقتتال في حي من احياء تلك المدينة بين المصريين والاوريين فهجم الاولون على الاخرين واوسعوهم ضربا واخذوا خنوخهم جراحا ونهبوا بيوتهم فالتجأ فريق كبير منهم الى السفن الانكليزية والفرنساوية وحينئذ شرع عرابي باشا يقيم الاستحکامات حول الاسكندرية

وفي ٥ تموز اشعرت الحكومة الانكليزية الحكومة الفرنسية بانها فوضت الى الاميرال بوشان سيمور ان يوجه الى المصريين بلاغا اخيرا ليتوقفوا عن تشييد تلك الاستحکامات وتهيئة معدات الدفاع واذالم يذعنوا لمنطوق ذلك البلاغ اضطر الى اطلاق القنابل على استحکاماتهم وسألتها عما اذا كانت قد انفذت مثل ذلك البلاغ الى الاميرال كونراد . فاجبتها بالنفي وصرحت بانها تأبى الاشتراك في مثل ذلك البلاغ وفي التدابير العنيفة التي

تدبرتها انكثرتا حتى ان مجلس النواب الفرنسي لم يرض باحتلال ترعة السويس احتلالاً عسكرياً

وفي ١٠ تموز ارسل البلاغ الانكليزي الى الحكومة المصرية فلم تجاوب عليه بشيء وفي ١١ منه عند الساعة السابعة صباحاً بدأوا باطلاق المدافع على مدينة الاسكندرية . ولم يكُ غير القليل حتى صمتت افواه المدافع في الاستحكامات المصرية التي كانت تقابلها بالمثل . وعند الساعة الرابعة ونصف الساعة دخلت المرفأ مدرعتان انكليزيتان واحتلت المدينة جنود انكليز وعادت السكنى الى مجاريها والامن الى نصابه

واجتازت بوغاز السويس جنود أخرى بقيادة السير غارنت ولزلي . وبددوا بسهولة شمل جيش عرابي باشا في موقعة التل الكبير في ١٣ ايلول، وبعد يومين دخلوا القاهرة ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا لا يزال الانكليز محتلين القطر المصري

ولم يتمكن الانكليز في مدة قصيرة من الاستيلاء على البلاد المصرية كلها اذ انه في الحين الذي كان فيه الحزب الوطني المصري قاد تآلف لمناوأة التدخل الاجنبي كان التجار الوطنيون الذين يزاولون النخاسة في السودان مضطربون بالبال من ازدياد النفوذ الاوروبي في بلادهم والتف حولهم بعض القبائل للانتصار لهم وقام رجل نوبي من دنكله يقال له محمد احمد وادعى المهدي فتابلت حوله جماعة ممن يذهبون مذهبه ويرون رأيه وناصره زعماء السنوسيين فدعا الناس الى الجهاد وكان قبل ذلك الحين معزلاً عن معاشر البشر ومقيماً في جزيرة صغيرة في النيل وكانت عندهم تفوح منه رائحة القداسة

فارسيت الحكومة المصرية جنودا مقاتلته فظفر بهم وقطع نظامهم ولما
رسخت اقدام الانكليز في القاهرة سيروا بعوثا لمحاربة المهدي فاصابها ما
اصاب الجنود المصرية من قبلها . واحاطت عصابات عديدة من انصار المهدي
بغردون باشا المنفذ الى الخرطوم لتولي قيادة الحملة المصرية ولم تتمكن
النجدة المرسلة لخلاصه من الوصول اليه قبل فك اعدائه به . فان الاهلين
خانوا الجنود المصرية الانكليزية ومكنوا المهديين من دخول المدينة والتنكيل
بجنود الانكليز القليلي العدد وكان ذلك سنة ١٨٨٥

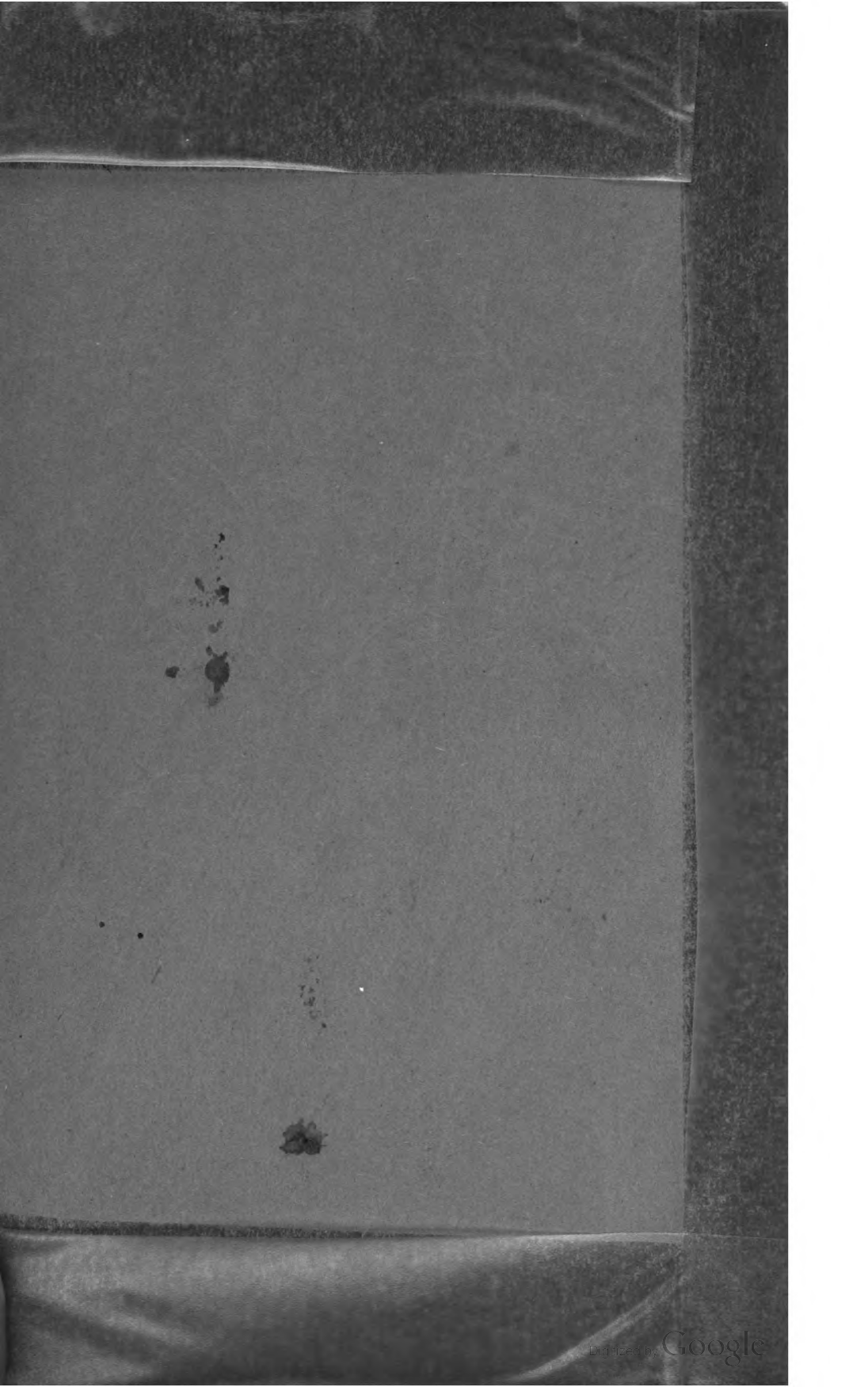
وبقيت بلاد السودان ردها من الزمان في ايدي النحاسيين وكان من
وراء ذلك الامر عذر للحكومة الانكليزية لبقائها قابضة بايديها على ازمة الشئون
في القطر المصري فلم تبادر الى الاهتمام اهتماما كافيا بضرب المهديونية
الضربة القاضية لثلاث تفلت من قبضتها تلك الذريعة التي تذرعت بها

وكان بعد اذلك ان قد هدأت الافكار بعد ذلك الغليان الصناعي
وعملت فرنسا صاحبة الامر والنهي في الكنفو السفلى الى تجهيز بعثة
بقيادة اليوزباشي مرشان فوضت اليها اجتياز افريقيا من المحيط الاطلنطيكي
الى البحر الاحمر قاطعة وادي النيل في السودان وبلاد فاشودا فقلقت
خواطر انكثرتا من المقاصد السرية المخبأة وراء ذلك المشروع واستأنفت
باسم الحكومة المصرية فتح السودان المصري فاقتضى ذلك الامر ثلاث
سنوات من الزمان اتفق في اثنائها مبالغ جسيمة من المال وسفكت فيها
دماء غزيرة وقد تولى قيادة الجيوش فيها كشنر باشا او اللرد كشنر سنة
١٨٩٦ طرد المهديون من دنكله سنة ١٨٩٧ من بربر وفي اول ايلول سنة
١٨٩٨ اضرمت نيران معركة نهائية في م درمان امام الخرطوم اندحر فيها

المهديون واخيلت منهم الخرطوم وتقوضت اركان سيادتهم
ووصل اليوزباشي مرشان مع رجاله الى فاشودا فقامت الحكومة الانكليزية
باسم مصر التي كانت قد استولت على تلك البلاد مدة طويلة بعد افتتاحها
لها منذ ٢٥ سنة وطلبت الى فرنسا الخروج من فاشودا فلم تشأ الحكومة
الفرنساوية ان تبشر حربا طاحنة في مثل تلك الاحوال واوعزت الى بعثة
مرشان ان تغادر فاشودا فامثلت للامرو وواصلت اكتشاف الاراضي حتى انتهت
الى اوبوك والبحر الاحمر بعد ان اجتازت بلاد الحبشة

ورمم على يد انكلترا ما تدعى من صرح الدولة المصرية ولا ينبغي
الاغفال عن مطامع الحزب الوطني المصري وهمته وتذكره اعمال عرابي
باشا وما يجريه من الاعمال الداعية الى استقلال مصر وما يلقاه من التشجيع
بعد نجاح فتيان الترك في عاصمة السلطنة العثمانية لان مصرا لا تزال
معتبرة ولاية من جملة الولايات الخاضعة للدولة العثمانية والحاصلة على بعض
الامتيازات تحت ولاية حكام من سلالة محمد علي باشا يتوارثون الحكم
فيها خلفا عن سلف





LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

01 077781266

ECAP

Digitized by Google